الله عليه وسلم وكان قادرا على إبادتهم ولكنه مع هذا كان رحيما بهم فاستجاب لطلبهم فى الجلاء وما تحمله إبلهم من الأموال إلا السلاح فأذن لهم بذلك.. فمنهم من ذهب إلى الشام، ومنهم من ذهب إلى خيبر... كما لقى عمرو بن جحاش بطل المؤامرة جزاء العادل فقتل، وكان ذلك على يد ابن عمه يا مين.

١- استراح الإسلام والمسلمون- إلى حين- من شر هذه الفئة التى دارت عليها دوائر بغيها وظلمها

٢- توحد سلطان المسلمين فى المدينة.

٣- تفرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم لتأديب غيرهم من المشركين والأعراب الذين نالوا من أصحابه صلى الله عليه وسلم يوم الرجيع وبئر معونة[١] وغيرهما.

٤- كان فى الأموال التى تركوها عون لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من فقراء المهاجرين حتى يتحقق لهم التوازن الاقتصادى والعيش مع إخوانهم الأنصار.

رابعا: معاملة بنى قريظة:-

القبيلة الثالثة الكبرى من قبائل اليهود، وقد كانوا على عهد وأمان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ هجرته إلى المدينة كغيرهم... ولكنهم لا يستطيعون التخلص مما طبع عليه اليهود من غدر وخيانة ونفاق وتآمر وفى كل مرة يظهر الله عز وجل مكرهم وخيانتهم وينصر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ويعز الإسلام وأهله دونهم.

ومع أن بنى قريظة ممثلين فى أحد زعمائهم كانوا راغبين فى الوفاء بالعهد أو

١- هما يومان قتل فيهما عدد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غدرا ففى يوم الرجيع قتل ستة من الصحابة كانوا قد ذهبوا مع القوم لتفقيههم ودعوتهم للإسلام، وفى يوم بئر معونة قتل سبعون كانوا قد ذهبوا لنفس الغرض فغدر من تظاهروا بالإسلام وقتلوهم، وكان كلا اليومين فى صفر من السنة الرابعة من الهجرة ٦٢٥م. انظر الاصطفا جـ٢ ص ١٩٦- ٢٠٠.

خافوا من عواقب النقض أن يحل بهم مثل الذى حل بإخوانهم من بنى قينقاع وبنى النضير.. حتى أن منهم من أسلم ودعاهم إلى الإسلام. وهو عمر بن سعد القرظى الذى قال لقومه بنى قريظة: رأيت اليوم عبرا وقد عبرنا بها، رأيت منازل إخواننا خالية بعد ذلك العز والمجد والشرف الفاضل، والعقل البارع، وقد تركوا أموالهم وملكها غيرهم وخرجوا خروجا ذليلا، وأوقع بنى قينقاع فأجلاهم وهم أهل عدة وسلاح ونجدة، فحصرهم فلم يخرج إنسان منهم وأسر باقوهم حتى سباهم وكلم فيهم فتركهم على أن أجلاهم من يثرب، يا قوم قد رأيتم مارأيتم فأطيعونى وتعالوا نتبع محمدا، والله إنكم لتعلمون أنه نبى قد بشرنا به.....فأسكته القوم ولم يتكلم أحد إلا كعب بن أسد، قال له: ما يمنعك يا أبا عبد الرحمن من اتباعه؟ قال: أنت يا كعب، قال: فلم وما حلت بينك وبينه قط، وقال بعض اليهود الحاضرون: بل أنت صاحب عهدنا وعقدنا فإن اتبعته اتبعناه وإن أبيت أبينا[1].

إلا أن أصلهم وطبيعتهم تغلبت عليهم، وما هى إلا مداولات بسيطة بينهم وبين إخوانهم اليهود والمشركين حتى نقضوا العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فدارت عليهم الدوائر وحل بهم وبال أمرهم، وكان عاقبة أمرهم خسرا.... وإليك البيان:

قال ابن إسحاق: كان من حديث الخندق أن نفرا من اليهود منهم سلام بن أبى الحقيق النضرى وحيى بن أخطب النضرى وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق وهوذة بن قيس الوائلى وأبو عمار الوائلى فى نفر من بنى النضير ونفر من بنى وائل وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله فقالت قريش لهم: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه

١- خاتم النبيين مرجع سابق ص ٩٠٤.

وأنتم أولى بالحق منه فهم الذين أنزل الله فيهم «ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا[١]» فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمعوا لذلك واتحدوا له، ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا عطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروهم أنهم يكونون معهم عليه وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك واجتمعوا معهم فيه[٢].

فاليهود كما ترى من هذا السياق هم الذين سعوا إلى حرب رسول اله صلى الله عليه وسلم وتأليب الأحزاب عليه وعلى أصحابه، وهم الذين تآمروا مع المشركين على استئصال الرسول ودعوته. وهم الذين شهدوا ظلما وعدوانا بأن الشرك والوثيقة خير من التوحيد والإسلام، وأن المشركين خير وأهدى سبيلا من المؤمنين

قال موسى بن عقبة: ولما نزل الأحزاب حول المدينة، أغلق بنو قريظة حصنهم دونهم، قال ابن إسحاق: وخرج بن أخطب النضرى حتي أتى كعب بن أسد القرظى صاحب عقدهم وعهدهم، فلما سمع به كعب أغلق باب حصنه دون حيى، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له، فناداه: ويحك يا كعب افتح لى، قال: ويحك ياحيى إنك امرؤ مشئوم، وإنى قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بينى وبينه ولم أر منه إلا وفاء وصدقا[٣]، قال: ويحك افتح لى أكلمك، قال: ما أنا بفاعل، قال: والله إن أغلقت الحصن دونى إلا خوفا على جشيشتك[٤].أن آكل معك منها فأحفظ الرجل[٥] ففتح له، وقال ويحك يا كعب، جئتك بعز الدهر وبحر طام[٦] قال: وما زاك؟ قال: جئتك بقريش

١-سورة النساء الأية رقم (٥١).
٢- البداية والنهاية جـ٤ ص (٩٦).
٣- وهذه شهادة حق.
٤- طعام من البر المجروش، وهو اتهام باليخل.
٥- أحفظه : أغضبه
٦- بحر طام : مرتفع كثير الماء المراد خير كثير أو جيش كبير يهلك من يقابله كالبحر يغرق من يعارض موجه.

على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال[١] من دومة وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقى[٢] إلى جانب أحد وقد عاهدونى وعاقدونى على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه، فقال كعب: جئتنى والله بذل الدهر وبجهام[٣] قد هراق ماؤه يرعد ويبرق وليس فيه شئ، ويحك يا حيى فدعنى وما أنا عليه لم أر من محمد إلا وفاء وصدقا، وقد تكلم عمرو بن سعد القرظى فأحسن وذكرهم ميثاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده ومعاقدتهم إياه على نصره، وقال: إذا لم تنصروه فاتركوه وعدوه[٤].

قال ابن إسحاق: حيى بكعب يفتله فى الذروة والغارب[٥] حتى سمع له- يعنى- فى نقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى محاربته مع الأحزاب على أن أعطاه حيى عهد الله وميثاقه لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبنى ما أصابك، فنقض كعب بن أسد العهد وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال موسى بن عقبه:«وأمر كعب بن أسد وبنو قريظة حيى بن أخطب أن يأخذلهم من قريش رهائن تكون عندهم لئلا ينالهم ضيم وإن رجعوا ولم يناجزوا محمدا، فعند ذلك نقضوا العهد ومزقوا الصحيفة التى كان فيها العقد بنى سعنة أسد وأسيد وثعلبة فإنهم خرجوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن إسحاق: فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى المسلمين بعث سعد بن معاذ وهو يومئذ سيد الأوس وسعد بن عبادة وهو يومئذ سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير وقال: انطلقوا حتى تأتوا هولاء القوم

١- مكان بجوار المدينة. ٢- مكان قريب من أحد ٣- سحاب لاماء فيه.

٤- لاتتحالفوا مع عدو عليه

٥- الزروة والغارب أعلى ظهر البعير والمعنى لم يزل يخادعه كما يخادع البعير.

فنتظروا أحق ما بلغنا عنهم، فإن كان حقا فالحنوا لى لحنا أعرفه، ولا تفتوا فى أعضاء المسلمين[١]، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس، قال: فخرجوا حتى أتوهم فدخلوا معهم حصنهم فدعوهم إلى الموادعة وتجديد الحلف فقالوا: الآن وقد كسر جناحنا وأخرجهم- يريدون بنى النضير- ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل سعد بن عبادة يشاتمهم فأعقبوه، فقال له سعد بن معاذ: إنا والله ما جئنا لهذا، وما بيننا اكبر من المشاتمة، ثم ناداهم سعد بن معاذ فقال: إنكم قد علمتم الذى بيننا وبينكم يابنى قريظة، وأنا خائف عليكم مثل يوم بنى النضير أو أمر منه، فقالوا: أكلت أير أبيك[٢] فقال: غير هذا من القول كان أجدر بكم وأحسن.

فانظر إلى هذا السخف من جانبهم، لم يكتفوا بنقض العهد، بل نالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وفحشوا فى القول مع أصحابه الذين أوفدهم إليهم، ولم يأخذوا بنصيحة سعد بن معاذ فى الوقت الذى نجد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصدق الشائعة، ويبعث من أصحابه من يستوثق له، ويوصيهم أن يعلنوا الخير والوفاء ويجهروا به، وأن يسروا ما يرونه من الشر ونقض العهد والخيانة حتى لا يؤثر فى الروح المعنوية للمسلمين، ثم أقبل السعدان ومن معهما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلموا عليه ثم قالوا: عضل والقارة[٣] أى كغدرهم بأصحاب الرجيع: حبيب وأصحابه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين[٤].

١- حين يشعر بتخلى حليفهم من بنى قريظة عنهم.

٢- انظر إلى الفحش فى القول وبذاءة اللسان وسخافة التعبير.

٣- عضل والقارة قبيلتان من بنى الهون بن خزيمة تآمروا على استدراج أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يوم الرجيع وتظاهروا بالإسلام حتى أرسلهم معهم ثم قتلوهم ..... انظر الاصطفا جـ٢ ص ١٩٦ مرجع سابق.

٤- البداية والنهاية رجع سابق جـ٤ ص (١٠٤-١٠٥)

ذلك ما كان من بنى قريظة: استجابوا لأخيهم اليهودى حيى بن أخطب وتآمروا مع أحزاب الكفر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفحشوا القول لأصحابه ولم يقبلوا تحذير سعد ولا نصيحته فى الوقت الذى كان فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون محاصرين فى المدينة حتى كاد رسول الله يصالح المشركين على ثلث ثمار المدينة ليفض الحصار حتى قضى الله عز وجل فى الأمر: «ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزا[١]»

بل إن بنى قريظة فى أثناء الحصار المر أرسلوا عيونهم يتجسسون على عورات المسلين ويتعرفون على مواطن الضعف تروى ذلك صفية بنت عبد المطلب عمة النبى صلى الله عليه وسلم فحين كانت هى وأمثالها من النساء والصبايا فى حصن لحسان بن ثابت إذ جاءهم رجل يهودى تقول صفية: «فمر بنا رجل يهودى فجعل يطيف بالحصن، وقد حاربت قريظة وقطعت ما بينها وبين الرسول صلى الله عليه وسلم فعلمت ابنة عبد المطلب من أنه يطيف بمساكن الذرارى والنساء، ومن أن بنى قريظة قطعت ما بينها وبين النبى صلى الله عليه وسلم أن هذا الرجل عين على المسلمين ويريد عورات النبى صلى الله عليه وسلم، قالت صفية لحسان: ليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون فى نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا أتانا آت، وأن هذا اليهودى يطيف بالحصن، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من ورائنا من يهود، وقد شغل عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فانزل إليه فاقتله، قال حسان: يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب، والله عرفت ما أنا بصاحب هذا، ولما أر عنده شيئا احتجزت (أى شدت وسطها) ثم أخذت عمودا ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته»[٢]

١- سورة الأحزاب الآية (٢٥).

٢- خاتم النبيين مرجع سابق ص (٩٣٦).

ومن جهة أخرى كان نعيم بن مسعود رضى الله عنه قد خذل بين المشركين وبنى قريظة وأوقع فتنة بينهم بتوجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسل بنو قريظة وغطفان: إنا والله ما نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا... فأبوا عليهم وخذل الله بينهم، وبعث الله الريح فى ليلة شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم.

قال محمد بن إسحاق: ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف عن الخندق راجعا إلى المدينة ومعه المسلمون، ووضعوا السلاح.....

المواجهة (الغزوة) كانت بأمر الله سبحانه :-

فلما كان الظهر أتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم معتجرا [1] بعمامة من استبرق على بغلة عليها رحالة عليها قطيفة من ديباج فقال: أوقد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم، فقال جبريل: ما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة، فإنى عامد إليهم فمزلزل بهم، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذنا فى الناس: من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة.

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم .

قال ابن إسحاق: ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على بئر من آبار بنى قريظة من ناحية أموالهم يقال لها بئر أنى، فحاصرهم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، وقذف الله تعالى فى قلوبهم الرعب، وقد كان حيى بن أخطب دخل معهم حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه، فلما أيقنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، قال كعب بن أسد: يا معشر يهود: قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإنى عارض عليكم خلا لا

١- الاعتجار : لف العمامة من غير وضع شئ تحت اللحية.

ثلاثا فخذوا بما شئتم منها، قالوا وما هي،قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل، وإنه للذي تجدونه في كتابكم فتأمنون به على دمائكم وأبنائكم ونسائكم، قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبدا ولا نستبدل به غيره، قال: فإذا أبيتم على هذا فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا يخشى أنقتل عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء، قالوا: أنقتل هؤلاء المساكين؟ فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم على هذه فالليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة قالوا: أنفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا- إلا من قد علمت- فأصابه ما لم يخف عنك من المسخ[1]؟فقال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة من الدهر حازما.

قال ابن إسحاق: فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتواثب الأوس فقالوا: يا رسول الله: إنهم كانوا موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت- يعنون عفوه عن بني قينقاع حين سأله عبد الله بن أبي- فلما كلمته الأوس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى، قال: فذلك إلى سعد بن معاذ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جعل سعدا في خيمة لأمرأة من أسلم يقال لها رفيده في مسجده، وكانت تداوي الجرحى، فلما حكمه في بني قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطئوا له بوسادة من أدم وكان رجلا جسيما جميلا، ثم أقبلوا معه على رسول

١- يشيرون بهذا إلى قوله تعالى « واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لايسبتون لاتأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون» سورة الاعراف الآية ١٦٣. انظر سبب النزول وتفسيرها في إن عطيه جـ٦ ص ١٣٢.

الله صلى الله عليه وسلم وهم يقولون: أحسن فى مواليك يا أبا عمر فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاك ذلك فيهم فلما أكثروا عليه قال: قد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم، فرجع بعض من كان معه من قومة إلى دار بنى عبد الأشهل، فنعى لهم رجال بنى قريظة قبل أن يصل إليهم سعد عن كلمته التى سمع منه، فلما انتهى سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«قوموا إلى سيدكم» فأما المهاجرون من قريش فيقولون: إنما أراد الأنصار، وأما الأنصار فيقولون: قد عم رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين، فقاموا إليه فقالوا: يا أبا عمر: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاك أمر موالبك لتحكم فيهم، فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم لما حكمت؟ قالوا: نعم، قال: على من ههنا- فى الناحية التى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معرض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالاله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، قال سعد: فإنى أحكم فيهم أن يقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة(سماوات) قال ابن إسحاق: ثم استنزلوا فحبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة النساء والذرية فى دار بنت الحارث امرأة من بنى النجار، وأمر بالأسارى الرجال أن يكونوا فى دار أسامة بن زيد، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم فى تلك الخنادق فخرج بهم إرسالا وفيهم عدوا الله حيى بن أخطب، وكعب بن أسد رأس القوم، وهم ستمائه أو سبعمائه، والمكثر لهم يقول: كانوا ما بين الثمانمائة والتسعمائة[1].

١-البداية والنهاية لابن كثير جـ٤ ص ١٢٣ وانظر تهذيب سيرة لابن هشام ص ٢١١-٢٢٨، عون البارى بشرح صحيح البخارى جـ٦ ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ وفقه السيرة ص ٣٢٣- ٣٤٣ ودراسة فى السيرة ص ٣٤٢-٣٤٩ ونور اليقين ص ١٦٦-١٦٩.

كما نرى من سرد تلك الوقائع يتضح لنا أن يهود بنى قريظة كانوا مجرمى حرب وفق قوانين القتال المعاصرة، نقضوا العهد، وانضموا إلى الأعداء والحرب قائمة بين المسلمين والأحزاب، فكان نقضهم هذا خيانة عظمى، ولم يكن عقابهم العادل المكافئ سوى القتل.

وهذا الحكم مع شدته عادل لأنهم مقاتلون واستمرت لهم صفة المقاتلين إلى آخر لحظة." وعلى بن أبى طالب عندما تقدم لهم خاطبهم على أنهم مقاتلون وقال وهو يهاجمهم: لأذوقن ما ذاق حمزة ولأفتحن حصنهم، فلما رأوا العزيمة فى على ومعه الزبير وأنهم مغلوبون لا محالة....طلبوا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فهم ارتضوا المحكم فيهم، ومن المقررات القانونية أن من ارتضى محكمين ليحكموا فيه وقد فوض لهم، ولهم بهذا التفويض أن يحكموا بما يرونه عدلا، ولقد حكم، وهو الذى ذهب إليهم[1] ليحول بينهم وبين نقض الميثاق فردوه ردا منكرا، وعرف أنهم يريدون اقتلاع الإسلام وقتل أهله[2]."

النتائج :-

بفتح حصون بنى قريظة يكون المسلمون قد تخلصوا من آخر كتلة يهودية فى المدينة اختارت بنفسها- كسابقتها- أن تقف من الإسلام موقف الحقد والعداء، وأن تنقض ميثاقها مع الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم ليستخدم أسلوب العقاب الجماعى إزاء اليهود الذين لم يروا منه كما قال سيدهم كعب بن أسد إلا وفاء وصدقا فكان لا يعاقب إلا القبائل التى نقضت عهدها تاركا القبائل الأخرى تمارس حريتها الدينية المدنية كاملة ما دامت على عهدها، وهكذا لم

١- أثناء حصار الأحزاب للمدنية وكان معه سعد بن عبادة.

٢- خاتم النبيين مرجع سابق ص ٩٤٩.

تؤد حادثة سوق الصاغة إلا إلى إجلاء مسببها من بنى قينقاع، كما لم تؤد محاولة اغتيال النبى صلى الله عليه وسلم إلا إلى طرد القائمين بها من بنى النضير. ولو ظلت بنو قريظة على عهدها ولم تمارس خيانتها الخطيرة فى معركة الخندق لكان لها شأن آخر غير المصير الذى انتهت إليه، هذا فضلا عن أن العقاب الذى كان ينزله رسول الله صلى الله عليه وسلم بخصومه اليهود كان دوما متكافئا مع الجرم الذى ارتكبه هؤلاء الخصوم،فإذا سمح لكل من بنى قينقاع وبنى النضير بالجلاء إلى أى مكان يشاءون داخل الجزيرة أو خارجها بعد أن حقن دماءهم ولم يستخدم أسلوب القتل إلا إزاء أولئك الذين خانوا العهد فى ساحة الحرب، وتعاونوا مع الأعداء فى ساعة الشدة وهو العقاب الذى تمارسه جميع الدول والقوانين ضد الخائنين.

يقول مونتجمرى وات: كانت قد بقيت فى المدينة قبيلة عظيمة هى قبيلة بنى قريظة وكانت تتظاهر بالإخلاص عندما حاصر المشركون المدينة ولكن مما لا شك فيه أنها كانت قد تمالأت مع المشركين وكانت تنتهز أول فرصة للهجوم على المسلمين من الخلف[١].

قال الندوى: وقد وافق ذلك الحكم قانون الحرب فى شريعة بنى إسرائيل، فقد جاء فى سفر التثنية الإصحاح العشرون ١٠، ١١، ١٢، ١٣:« وحين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها، وإذا دفع الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك» وهذه كانت العادة المتبعة فى بنى إسرائيل فى عهد أنبيائهم كما جاء فى التوراة[٢]»

١- هامش السيرة النبوية للندوى ص ٢٩٣. ٢ - السيرة النبوية - الندوى ص ٢٩٧.

ويقول بردلى فى كتابه «حياة الرسول»: لو ترك محمد جريمة غدر بنى قريظة من غير أن يعاقبهم عليها لم يكن للإسلام فى جزيرة العرب بقاء، إنه لا شك أن عملية قتل اليهود كانت عنيفة ولكن لم يكن ذلك حادثا فريدا من نوعه فى تاريخ الديانات، وقد كان لهذا العمل مبرر من وجهة نظر المسلمين، وقد تحتم الآن على القبائل العربية واليهود أن يتأملوا مرة بعد مرة قبل أن يقدموا على غدر أو نقض عهد لأنهم عرفوا عواقبة الوخيمة وشاهدوا أن محمدا يستطيع أن ينفذ ما يريد»[١]

أما اليهود الذين لا ينتمون إلى تلك الكتل ذات الوجود السياسى والعسكرى والاقتصادى فقد ظلوا حتى النهاية يمارسون حقوقهم وحرياتهم فى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وخير شاهد على ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم توفى ودرعة مرهونة عند يهودى [٢]

خامسا : الموقف فى خيبر:-

كان الرسول صلى الله عليه وسلم ينتظر الفرصة المواتية لضرب التجمع السياسى الأخير فى خيبر والمواقع المجاورة بسبب ما كانت تمارس ضد الإسلام، فمن خيبرا نطلق اليهود لدعوة القبائل العربية وتحزبيها ضد المسلمين، ومنها خرج حيى بن أخطب ودفع بنى قريظة إلى الانتفاض فى اللحظات العصيبة، وقد غدت خيبر بمرور الأيام كملجأ يأوى إليه اليهود المبعدون عن المدينة ينتظرون الفرصة المواتية للانتقام من الإسلام واسترداد مواقعهم ومصالحهم التى جردهم رسول الله صلى الله عليه وسلم منها..... وقد اتضح هذا فى الأيام القلائل التى أعقبت هزيمة بنى قريظة... حيث اتصل اليهود بزعيمهم سلام بن مشكم وسألوه الرأى....فأجابهم: نسير إلى محمد بما معنا من يهود خيبر فلهم عدد... ونستجلب يهود تيماء...وفدك...ووادى القرى ولا

١- المرجع السابق ص ٢٩٩.
٢- دراسة فى السيرة ص ٣٤٩.

نستعن بأحد من العرب.... فقد رأيتم فى غزوة الخندق ما صنعت بكم العرب.... ثم نسير إليه فى عقر داره..... فقالت اليهود: هذا الرأى. فإذا أضيف إلى ذلك أنهم كانوا يسعون إلى التحالف مع بنى سعد...ومع غطفان ضد الإسلام ورسوله علمنا أنهم خطر يهدد المسلمين من جهة الشمال.

ولهذه الأسباب أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهيأ لقتالهم، ومهد لذلك بإرسال مجموعات من فدائى الأنصار لقتل زعمائهم..... ومما ساعده على ذلك عقد صلح الحديبية مع قريش فأمن بذلك خطرهم وجانبهم، وكان الله عز وجل قد بشر بها فى سورة الفتح بعد صلح الحديبية... وقد سار رسول الله صلى الله عليه وسلم صوب خيبر على رأس حملة استنفر لها الراغبين فى الجهاد فحسب دون الغنائم .

قال ابن إسحاق: وحدثنى من لاأتهم عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا قوما لم يغر عليهم حتى يصبح فإن سمع آذانا أمسك وإن لم يسمع آذانا أغار....فنزلنا خيبر ليلا فبات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصبح لم يسمع آذانا فركب وركبنا معه، وركبت خلف أبى طلحة، وإن قدمى لتمس قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم واستقبلنا عمال خيبر غادين قد خرجوا بمساحيهم[١] ومكاتلهم [٢]، فلما رأوا رسول الله رسول الله صلى الله عليه وسلم والجيش قالوا: محمد والله، محمد والخميس[٣]؛ معه فأدبروا هربا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين [٤]، وكان

١- المساحى جمع مسحاة : وهى الفأس- أداة من عدة العمل.

٢- المكاتل جمع مكتل : وهى (القفة) الكبيرة) زنابيل يحمل فيها الثمر.

٣- الخميس : الجيش سمى بذلك لأنه كان يتكون من خمس فرق.

٤- البداية والنهاية لابن كثير جـ٤ ص ١٨٧.

رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مرض فأعطى الراية أبا بكر فلم يستطع فتحها، فأعطاها عمر..فلم يستطع فتحها...فأعطاها عليا ففتحها الله على يديه. وروى البخارى عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر« لأعطين هذه الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله قال:فبات الناس يدوكون[١] ليلتهم... أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على النبى صلى الله عليه وسلم كلهم يرجوا أن يعطاها فقال: أين على بن أبى طالب؟ فقالوا: هو يا رسول الله يشتكى من عينه..قال: فأرسل إليه فأتى فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عينه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية، فقال على: يا رسول الله أقاتلهم حتي يكونوا مثلنا؟ فقال صلى الله عليه وسلم: أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه.. فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم[٢].

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ما خرج لقتالهم ولا حرص على ذلك ولا أوصى أصحابه بهذا وإنما كانت غايته الأمن من خطرهم، والوقاية من شرهم... ودعوتهم للإسلام... فإن هم اهتدوا وأسلموا فذلك الخير كل الخير، وإلا فليأمن جانبهم ويحذر شرهم ومما يؤكد ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن انتصر عليهم وأصبحت جميع أموالهم تحت يديه صالحهم على النصف فى ثمار خيبر على أنه إذا شاء أن يخرجهم منها أخرجهم .

قال إبن إسحاق: وحاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل خيبر فى حصنهم الوطيح والسلالم[٣] حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيرهم وأن يحقن دماءهم ففعل

١- يدوكون ليلتهم : باتوا فى اختلاط ودوران وقيل: يذكرون.

٢- البداية والنهاية جـ٤ ص ١٨٦ - ١٨٧.

٣- كانت خيبر تشمل على سبعة حصون هى: ناعم، القموصى، الشق، النطاه، السلالم، الوطيح، والكتيبة، وكان الوطيح والسلالم آخر حصون خيبر فتحا لأنها كانت منيعة وطال حصارها ١٤ يوما، أنظر عون البارى جـ٦ ص ٢٧٥ وما بعدها.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حاز الأموال كلها الشق ونطاه والكتيبة وجميع حصونهم إلا من ذينك الحصنين فلما سمع أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسيرهم ويحقن دماءهم ويخلوا له الأموال ففعل، وكان ممن مشى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم، فى ذلك محيصه بن مسعود أخو حارثة، فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعاملهم فى الأموال على النصف وقالوا له نحن أعلم بها منكم وأعمرلها، فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصف، على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم، وعامل أهل فدك بمثل ذلك[1].

ولا يتورع اليهود عن نقض العهد والخيانة حتى وهم فى أشد الحاجة إلى الوفاء.... فهاهم يعاهدون رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محاصرهم ومتمكن منهم على أن يفك أسرهم وله جميع أموالهم... ثم ينقضون ذلك ويخونون.

قال الواقدى: ثم تحول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل الأجية والوطيح والسلالم بحصنى أبى الحقيق وتحصنوا أشد التحصن، وجاء إليهم كل من كان انهزم من نطاة إلى الشق فتحصنوا معهم فى القموص وفى الكتيبة وكان حصنا منيعا وفى الوطيح والسلالم وجعلوا لا يطلعون من حصونهم حتى هم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينصب المنجنيق عليهم.. فلما أيقنوا بالهلكة وقد حصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة عشر يوما، نزل إليه ابن أبى الحقيق فصالحه على حقن دمائهم وبسيرهم ويخلون بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان لهم فى الأرض الأموال والصفراء والبيضاء[2] والكراع والحلقة وعلى البز إلا ما كان ظهر على ظهر إنسان يعنى لباسهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: برئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتم شيئا فصالحوه على ذلك.

١- البداية والنهاية لابن كثير جـ٤ ص ١٩٩.

٢- الصفراء والبيضاء: الذهب والفضة.

ولهذا لما كتموا وكذبوا وأخفوا ذلك المسك[١] الذى كان فيه أموال جزيلة تبين أنه لا عهد لهم فقتل ابنى أبى الحقيق وطائفة من أهله بسبب نقض العهود منهم والمواثيق[٢]وكذلك محاولتهم اغتيال النبى صلى الله عليه وسلم بعد الصلح والمعاهدة كما روى البخارى عن أبى هريرة قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم» وكانت التى أهدتها وقدمتها امرأة سلام بن مشكم الذى قتل وروى الإمام أحمد بعد ذلك: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إجمعوا لى من كان ها هنا من يهود، فجمعوا له، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: إنى سائلكم عن شئ فهل أنتم صادقى عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أبوكم؟ قالوا: أبونا فلان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كذبتم بل أبوكم فلان.... قالوا: صدقت وبررت فقال: هل أنتم صادقى عن شئ إذا سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته فى أبينا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أهل النار؟ فقالوا: نكون فيها يسيرا ثم تخلقونا فيها. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: والله لا نخلفكم فيها أبدا ثم قال لهم: هل أنتم صادقى عن شئ إذا سألتكم؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم.قال: هل جعلتم فى هذه الشاة سما؟ قالوا: نعم، قال: ما حملكم على ذلك؟ قالوا: أردنا إن كنت كاذبا أن نستريح منك، وإن كنت نبيا لم يضرك[٣]

فانظر ماذا يفعلون، يدعون أنهم يبحثون عن صدق النبى صلى الله عليه وسلم ونبوته ولا يبحثون عن أتباعه والاهتداء بهديه وقد تبين صدقه ونبوته.

سادسا : الموقف مع اليهود المتفرقين :-

وكان يوجد بجوار خيبر عدة قبائل من اليهود القلائل يعيشون فى عدد من القرى

١- المسك : الجلد.

٢ - البداية والنهاية لابن كثير جـ٤ ص ٢٠٠.

٣- البداية والنهاية مرجع سابق جـ٦ ص ٢٠٩.

والبلاد..... فلما علموا بسقوط خيبر سارع بعضهم بإبداء الرغبة في مصالحة الرسول صلى الله عليه وسلم على مثل ما صالح عليه يهود خيبر، فصالحهم... من هؤلاء: يهود فدك، تيماء الذين صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجزية وأقاموا في بلدهم[١].

أما يهود وادى القرى فلم يقبلوا الصلح إلا بعد الحرب والقتال والهزيمة، وبذلك فتحت وادى القرى عنوة لا صلحا[٢].

محصلة ذلك - النتائج -:

بسقوط خيبر والمواقع المجاورة لها تم تصفية آخر تجمع يهودى لعب دوره فى مواجهة الإسلام وخصومة أهله وقضى قضاء تاما على القوى السياسية والاقتصادية ليهود الحجاز وغدت كلمة الإسلام هى العليا فى معظم مساحات الجزيرة العربية إلى أن تم فتح مكة فأصبحت كلمة الإسلام هى العليا فى جميع ربوع الجزيرة .أما باقى اليهود فى أطراف الجزيرة العربية من أقصى الشمال فقد كتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤمنهم على أموالهم وأراضيهم ودياناتهم وأن الأمراء منهم، ولا معاداة بينهم، وأن لهم ذمة الله ورسوله، وذلك فى مقابل جزية يدفعونها كل عام، فمن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم ليحنة بن رؤبة ملك إيلة:« بسم الله الرحمن الرحيم: هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله تعالى وذمة محمد النبى ومن كان معه من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يريدونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر». وكتابه أيضا إلى بنى جنبة الذين كانوا يقيمون على خليج العقبة قريبا من أيلة:«فقد نزل على

١- خاتم النبيين مرجع سابق ص (١٠٥٥).

المرجع السابق ص (١٠٧١).

رسلكم راجعين إلى قريتكم فإذا جاءكم كتابى هذا فإنكم آمنون...لكم ذمة الله وذمة رسوله، وإن رسول الله غافر لكم سيئاتكم وكل ذنوبكم لا ظلم عليكم ولا عدى، وإن رسول الله جاركم مما منع منه نفسه، وإن عليكم ربع ما أخرجت نخلكم وربع ما صادت عروككم[١] وربع ما اغتزل نساؤكم، وإنكم يرتتم بعد من كل جزية أو سخرة، فإن سمعتم وأطعتم فإن على رسول الله أن يكرم كريمكم، ويعفو عن مسيئكم، وأن ليس عليكم أمراء إلا من أنفسكم أو من أهل رسول الله[٢]».

وكتب مثل ذلك- فى الأمان والذمة- لبنى عاديا من بنى عريض وأهل جرباء وأذرح ويهود البحرين.

نص كتابه صلى الله عليه وسلم لأهل جرباء وأذرح: «بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب محمد رسول الله لأهل جرباء وأذرح أنهم آمنون بأمان الله تعالى وأمان محمد صلى الله عليه وسلم، وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب ومائة أو قية، وأن الله تعالى عليهم كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين ومن لجأ إليهم من المسلمين»[٣].

وبذلك تمكن الرسول صلى الله عليه وسلم من تحويل هذه التجمعات اليهودية فى أقصى الشمال إلى جماعات من المواطنين فى الدولة الإسلامية يدفعوا لها ماتفرضه عليهم من ضرائب نقدية أو عينية ويحتمون بقوتها وسلطانها، ويتمتعون بعدلها وسماحتها. وبهذا استقر الإسلام وسكت اليهود إلى حين كما هى عادتهم وطبعهم فما أن توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدأوا يسعون إلى الانقضاض على الإسلام والمسلمين يريدون أن يستردوا مجدهم وسيادتهم، تقول السيدة عائشة رضى الله عنها: لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب واشرأبت اليهود

١- عروككم : مراكبكم. ٢- دراسة فى السيرة ص ٣٥٨.

٣- خاتم النبيين مرجع سابق ص ٦٠١-١٣٠٧.

والنصرانية ونجم النفاق، وصار المسلمون كالغنم الشاردة فى الليلة الشاتية لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم حتى جمعهم الله على أبى بكر[١]

****

وخلاصة ما تقدم يتضح أن العلاقات الإسلامية اليهودية مرت بأطوار عدة، كان لكل طور منها ميزاته....ففى مرحلة ما قبل الهجرة والبعثة كان اليهود يستفتحون بالنبى صلى الله عليه وسلم على الذين كفروا ويتباهون به ظنا منهم أن يكون من بينهم، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، وكانوا يخيفون به أهل المدينة ويقولون لهم نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث حاولوا القضاء عليه وتأليب المشركين.

وفى بدء الهجرة حاول النبى صلى الله عليه وسلم اكتسابهم وأمن جانبهم، فعاهدهم على السلام والأمان وحماية المدينة.... ولكنهم كانوا ينقضون العهد والميثاق، فبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بطهر المدينة من كل فئة منهم تبدأ بالعداوة وتعلنها.... فبدأ ببنى قينقاع..ثم بنى النضير...ثم بنى قريظة، ولم يؤاخذ فئة بجريرة أخرى....ولا قبيلة بنقض قبيلة أخرى...ولكنه كان ينتظر ويجرب فى كل مرة حتى يتأكد من نقضهم العهد فلا يجد بدا من حربهم....وبعد أن حارب رؤساءهم وزعماءهم وتكتلاتهم القوية....كاتب الضعفاء منهم وعاهدهم على الأمان.....والسلام....وطرح العداء.....وإقامة الحب والتعاون مقامة. وفى عصرنا الحاضر نحاول ونكرر ما سلف ونفتح أبوابنا ومد أيدينا بالسلام لغد أفضل....والعيش فى أمان فهل تنجح المحاولات؟ هذا مانرجوه وبالله الهداية والتوفيق. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(د/) إبراهيم عبد الرحمن عتلم

أستاذ الدعوة المساعد/ أصول الدين المنوفية.

جامعة الأزهر

١- تهذيب سيرة ابن هشام مرجع سابق ص (٤٠٤).